

تمثال الحرية الأمريكية إذ يخون السورين

في الذاكرة الجمعية السورية، لم ترتبط الولايات المتحدة الأمريكية إلا بكونها "شراً" مطلقاً، كنتيجة منطقية لسياسات الأخيرة في المنطقة خاصة فيما يخص دعم كل من الطغاة العرب وإسرائيل على مدى عقود طويلة، ولسياسة النظام السوري التي أعلت من شأن شعارات جوفاء لضبط الداخل بشعارات من نوع "محاربة الإمبريالية الأمريكية"، على اعتبار أن الأولوية اليوم لمحاربة العدو الخارجي المتربص على الأبواب، وهو العدو الذي عملت السلطة السورية على تصفيته مما ألقى بظله على العقل السوري الذي لم ير في واشنطن إلا "عدوا محضاً" إلى أن جاءت الثورة السورية التي تمرد بها الشعب السوري على ما حاول النظام غرسه فيه فكان أمام واشنطن فرصة أن تعود إلى روح "تمثال الحرية" وفيمه، وتصبح سياستها في المنطقة العربية للاقتصادي طموحات السوريين الماهفين للحرية، خاصة أن تصريحات أوباما بأن "أيام الأسد معدودات" لاقت ترحيباً لدى السوريين، الذين أملوا أن تعانق حرية تمثال الحرية الأمريكية الشهير.

إلا أن التحولات العميقة التي حفرت مسار الثورة السورية أدت لأن يكتشف السوريون أن أمريكا هي أمريكا الباحثة عن مصالحها بعيداً عن قيم الحرية التي زرעהها مؤسسوها الأوائل، خاصة بعد صفقة الكيماوي التي عقدتها مع نظام الأسد، لتستيقظ ذاكرة السوريين مجدداً على أمريكا التي تربوا عليها، بعد أن تأكّل لهم أنها تتفرج كغيرها من الفوّى على خراب بلدتهم وتفتّه بل تدفع نحو ذلك، فصبوا جام غضبهم وسخرية تمثال الحرية الأمريكية من جديد، ولكن بطريقة لا تخلو من إبداع وطرافة وسخرية، حين اختارت تمثال الحرية الأمريكية لتسخر منه تارة وتتنحّه تارة أخرى!

هذا الغضب تجلّى عبر لوحات أيدجها الفنانون السوريون، تستوحى صورة تمثال الحرية الشهير لتقديم فكرة الحرية السورية، مؤكدة أنّ ما تخلّت عنه سياسة أمريكا الحديثة بتحويلها الحرية إلى مجرد تمثيل تحمله الحرية السورية الخارجية من رحم جغرافية الواقع السوري، كما تبيّن لوحة للفنان "جمال الجراح" حيث جذور الحرية الخارجية من الخريطة السورية تمتد على كامل جغرافية العالم، وكأنه يقول: ما أصواته واسنطون من روح تمثّلها تعيد إنتاجه سورياً اليوم بأرواح أبنائها وهي تدفع يوماً بيوم ثمن الحرية التي تعيقها سياسة صاحبة تمثال الحرية (أمريكا).



لوحة للفنان جمال الجراح. المصدر: الصفحة الرسمية للفنان على الفيسبوك

النقد الذي قدمته اللوحات للسياسة الأمريكية كان حادا جدا في كثير من الأحيان، إلى درجة أن الفنان "وسام الجزائري" أليس تمثال الحرية [فناها كيميائياً](#) كسفريه من الصفة التي عدتها أوباما مع الأسد على ظهر السوريين، حين سمح للأسد بالتنازل عن الكيماوي والاستمرار بقتل الشعب السوري بأسلحة أخرى، وكان الموت بغیر الكيماوي مسموح في العرف الأمريكي؟ في لوحته "الحلم الأمريكي" ذهب الفنان "مصطفى يعقوب" أبعد من ذلك، حين صور التمثال فوق جبل من الجماجم السورية، مؤكداً لـ "حكاية ما انحكت" أنه يستخدم "تمثال الحرية كرمز قوي لللوحات، وأعني فيه إسقاط لمعنىين: الأول هو كرمز للولايات المتحدة، والثاني كرمز للحرية نفسها. وأحياناً التنين سوا".

في لوحة أخرى للفنان "يعقوب" حملت عنوان "تمثال الحرية" نرى تمثلاً مقلوباً يتدلى منه سلماً ليصعد عليه الموتى، فائلاً عن لوحته: "الشعوب هي التي تحاول الصعود من القسم السفلي المظلم والدكتاتوري إلى القسم العلوي المضيء بالحرية، في الوقت الذي تقصصنا فيه الطائرات. ونحن بطريق الصعود ولا تدعنا نكمل. أنا قدمت معنيين بهذه اللوحة. الأول: عام للحرية والشعوب وقصص الدكتاتوريات للشعب المطالب بها. والثاني: إسقاط مباشر على أمريكا نفسها لأنها تدعم الدكتاتوريات وتنمع العالم من الوصول لحريتها".

محاولة تذكير أمريكا بأنها تخون نفسها وفيها وروحها قبل أي شيء آخر، هو معنى سيتكرر في الكثير من لوحات الفنانين السوريين، حيث رسم الفنان "ثائر معروف" التمثال وهو مغطى بقطع نقدية ممزقة، كدلالة على هيمنة المال والمصالح على القيم، وهو ما جعل شعلة الحرية الأمريكية تتطفي كما بين الفنان "جمال الجراح في لوحة أخرى له".

ولكن بعيداً عن النقد الموجه للأمريكان، كان لتمثال الحرية لدى الفنانين السوريين استخدامه الخاص كرمزية تحيل على الواقع السوري المزمن، كما فعل الفنان " تمام عزام " حين استوحى **تمثلاً** مبني من آثار الدمار السورية، وكأنه يقول: من هذا الخراب ستتبّت زهرة الحرية السورية، لتعيد للتمثال معناه المبني من غبار الدمار وأرواح الشهداء الصاعدة نحو السماء بعيداً عن تمثال الحرية الأمريكي الذي بات برجوازيًا أنيقاً بامتياز إذا ما قيس بلوحة الفنان عزام.

من خلال لوحاتهم البسيطة التي تقتصر المعنى من تمثال الحرية الأمريكي انتقد الفنانون السوريون سياسة أمريكا في سوريا، وعبروا عن شوفهم لحريتهم، مدركون أنها لن تكون دون زرع معنى الحرية من جديد في كل العالم، وهذا ما عبرت عنه بجمالية فائقة ورسالة ذكية لوحة الفنان "فارس غرابطي" حين رسم تمثال الحرية وبهذه شعلة الحرية، وكأنه هو الآخر يبحث عن الحرية التي ضيّعها أمريكا في مسارها الإمبريالي الطويل.